Dr. Eng.
Nader Riad

ألمانيا وأنا

مقولة سجلها التاريخ تقول أن رجلان أثرا في ألمانيا والألمان أولهما " بسمارك " موحد ألمانيا صاحب سياسة الحديد والنار وثانيهما هو " ادولف هيتلر " زعيم النازية ومشعل الحرب العالمية الثانية ، حيث ينسب لبسمارك انه جعل ألمانيا كبيرة والألمان صغاراً ، بينما ينسب لهيتلر انه جعل ألمانيا صغيرة والألمان كباراً .

إذ أن بسمارك صاحب سياسة الحديد والنار تبني رؤيه سيطرت علي كيانه لم تخلو من الحكمة وإن كان ظاهرها العنف حيث دعا الدويلات والممالك والإمارات التي قامت عليها الإقطاعيات الكبري الاقتصادية للتوحد تحت مظلة دولة كبري مع احتفاظ كل إمارة أو مملكة أو دويلة بحكمها الذاتي تحت نفس الكيان السابق ، وهو أمر قوبل بأغلبية رافضة وأقلية موافقة مما دعاه لتوحيد ألمانيا بحد السيف . وحكمة هذا الرجل العظيم في أن يسلم حكم ما سمي بالمقاطعات الألمانية لحكامها السابقين ليديروا فيها شئونها الداخلية بالتوافق مع القوانين والتشريعات الفيدرالية التي تسري علي الجميع ، وبذا فقد جعل من ألمانيا دولة كبيرة تضم تلك المقاطعات ، إلا انه حد من سلطة الملوك والأمراء فجعل حجمهم اصغر مما كان عليه بعد أن إنتصر عليهم ، وبذا جعل الألمان صغاراً .

ويوفر هذا النظام الفيدرالي أمران في غاية الأهمية : الأول انه يقوم علي مقاطعات كانت لها مقوماتها المتكاملة واحتفظت بهذه الميزة فيما بعد وهي الاكتفاء الذاتي اقتصادياً إذ أن كل مقاطعة من المقاطعات الستة عشر تملك مصادر ومقومات الصناعة والزراعة والتكنولوجيا وصناعة الأغذية وعلي رأسها صناعة البيرة وصناعة السكر وباقي مسلسل الاكتفاء الذاتي بحيث تستطيع أن توفر رسالة الاكتفاء الذاتي بصورة مستقلة ، وبالتالي توفر لديها القدرة علي المنافسة مع باقي الولايات الأخرى من واقع الندية بحيث أصبحت الحصيلة النهائية هي المنافسة في صناعة النجاح ، أما الأمر الثاني فيتمثل في القدرة الألمانية علي بناء سيادة الدولة قائمة علي الربط المركزي للمؤسسات الفيدرالية لتدير شئونها فيه بصورة مركزية

تليفون : ٥٩١٠٠٥٠ / ٥٩١٨٠٤٣ (٠٢) فاكس : ٥٩١٣٧٦٢ (٠٢) ص.ب : ٢٠١٦ ـ ١١١١١ القاهرة

دون الإخلال بالمؤسسات المحلية أو إيجاد ثمة تعارض معها ، مثال ذلك الجيش الفيدرالي – نظام الشرطة الفيدرالي – السكك الحديد الاتحادية – مصلحة التليفونات الفيدرالية وإدارات البحوث والتطوير في مجالات الفضاء والطيران وتطوير الأسلحة التي وزعت إداراتها علي مختلف الولايات مما جعل من عائدها الاقتصادي قيمة مضافة موزعة بين الولايات الكبري مع احتفاظ الحكومة الفيدرالية بسلطتها الكاملة عليها .

أما نظام الحكم المحلي المتميز لتلك الولايات فإنما يقوم علي احتفاظ تلك الولايات بحصيلة الضرائب المتحصلة داخلها لنفسها لتنفق منها علي ميزانياتها واستثماراتها الداخلية بينما تحصل لحساب الخزانة الفيدرالية بعض نوعيات الضرائب مثل ضريبة المبيعات .

أما الرجل الثاني في هذه المقارنة فهو الزعيم أدولف هيتلر منشيء حركة النازية ومطلقها من عقالها لتنامي بسرعة وتسيطر علي فكر الألمان ووجدانهم لتصبح عملاقاً متعصباً للقومية الألمانية جاعلاً ألمانيا فوق الجميع منادياً بحق الشعب الألماني في المستعمرات التي تقاسمتها انجلترا وفرنسا فيما بينهما مشعلاً بذلك فتيل الحرب العالمية الثانية والتي دارت رحاها لسنوات طويلة مخلفة وراءها أكثر من ١٠ مليون قتيل وانتهت بتقسيم ألمانيا لتصبح ألمانيا اصغر مما كانت عليه قبل الحرب .

إلا أن عملية إعداد الدولة للحرب والتى قادها بكفاءة هتلر لفترة سابقة للحرب بخمسة عشر عاماً باعتبارها هدفاً أساسياً له كان لها منتجاً ثانوياً له أهميته ألا وهو بناء المواطن الألماني علي أسس عمادها حب العمل والولاء للوطن والتمسك بالتعليمات والكبرياء المهنى وهى صفات صاغت سبيكتها نار الحرب والمعاناة والإخلاص للوطن والمبادئ المهنية مما جعل كل فرد رقيباً علي نفسه وعلى غيرة بمقياس النظام والانضباط وحب العمل الجماعي ، وبذا فإنه كان لهذه الحرب الباهظة التكاليف الفاشلة فى نتائجها منتجاً إيجابياً في بناء الشخصية الألمانية للفرد الألماني القائمة علي الاعتزاز بالعمل وتعظيم دوره وهو ما جعل للإنسان الألماني مكانته المتميزة المعترف بها فيما بعد سنوات الحرب والهزيمة والهوان .

تليفون : ٥٩١٠٠٥٠ / ٥٩١٨٠٤٣ (٠٢) فاكس : ٥٩١٣٧٦٢ (٠٢) ص.ب : ٢٠١٦ – ١١١١١ القاهرة

وبذا صحت المقولة التى مفادها أن هيتلر جعل من ألمانيا دولة أصغر وجعل الألمان كباراً.

أمـــا تجربتي مع ألمانيا فقد بدأت معي وأنا في الثامنة عشر من عمري لا املك خبرة ســـوي القدرة علي مقارنة الواقع المصري مع الواقع الألماني وحبي للتعلم وآفاقي المتفتحه لكل مـــا هو جديد ، فبهرت بالانضباط وحسن إدارة الأفراد للوقت مقاسةً بأمور حياتية مثل مواعيد وصول الترام والمترو والأتوبيس المعلقة علي كل محطة ، وانبهاري بوصـــول كـــل هـــذه المركبات بالدقيقة لتلك المحطات ، وكذا احترام الفرد للآخر علي غـــير معرفـــة ســـابقة ، وانضباط نظام المرور واعتزاز السائق برخصة القيادة كمستند تأهيل عالي الشأن وحـــرص الفرد في جميع الأوقات علي أن يدير حواراً ناجحاً مع الآخرين حتي مع اخـــتلاف الـــرأي ووجهة النظر ، كما شدني أن الألماني يعاملني طبقاً للقواعد المنطقية دون أن يقف لحظة أمام حواجز وهمية من اختلاف الهوية أو السن أو اللون أو الديانة والتي يتحـــرج الألمـــان مـــن الدخول فيها قبل أن تتوثق المعرفة .

كذلك لم تنقطع علاقتي منذ حداثة وجودى فى ألمانيا خلال سنوات المرض والعلاج والتعليم والتدريب والنزول لميدان العمل منافساً ومزاحماً في أن ألتقي كل يوم بنساء ورجال عظـــام أضافوا لمفاهيمي الجديد واذكوا إعجابي بهذا الشعب المتجدد الحيوية المبدع والخلاق ، كما لم أتوقف لحظة عن مقارنة أوجه تلك الممارسات علي هذه الأرض الألمانية بما لها من مظاهر غنية بمناطق الجمال والتفوق لتلك التى تماثلها علي أرض مصر .. وطني ومســـقط رأســـي ومحط طموحي ، فلم انقطع عن الإعجاب بالإنسان المصري في إلتصاقه بالحياة وإحساســـه بحاجة الآخرين وشهامته وحب مد اليد لكل محتاج علي مختلف مساحات المفاهيم بدءاً مـــن المدينة ونزولاً إلي القرية ووصولا للمجتمعات البدائيـــة البســـيطة ، وكيـــف أن الحيـــاة الاجتماعية بدفئها بين المصريين تخفف كثيراً من وطأة الحياة وضيق الإمكانيات إلا أنها أبداً لم تحد من الطموح الخاص بكل فرد في السعي وراء مسارات التعلم المتاحـــة تحقيقـــاً لهـــذه الطموحات .

تليفون : ٥٩١٠٠٥٠ / ٥٩١٨٠٤٣ (٠٢) فاكس : ٥٩١٣٧٦٢ (٠٢) ص.ب : ٢٠١٦ – ١١١١١ القاهرة

وكم كان لهذه المقارنات من فائدة وهى التي لم أملُ يوماً من عقدها بين أوجه التفوق والقصور وما يقابلها من أنماط الاستفادة من الأولى وتصحيح مسار الثانية وما فى اختلاف لتلك الأنماط من الحلول بين كل من مصر وألمانيا ، وكيف كان للإنسان المصري من القدرة علي استنباط الحلول المتميزة لمشاكل تعترضه بتكلفة زهيدة تصل به لحلول مرضية وإن كانت وقتيه في بعض الأحيان ، بينما كان يعمل الإنسان الألماني لإيجاد الحلول المؤسسية التي غالباً ما تكون عالية التكلفة ، وهو الأمر الذي وجهنى علي امتداد حياتي العملية للأخذ بأسباب الجودة والبحث عن الحلول الدائمة والاهتمام بدراسة التفاصيل الدقيقة التى يتطلبها ذلك ، كما أنني قد تعلمت أن الحياة العملية بجانبها الوظيفي يجب ألا تعزل الإنسان عن الانفتاح علي النشاط الخدمي والتطوعي سواء علي المستوي المحلي في مصر أو الدولي فى ألمانيا، وهو الأمر الذي أهلني فيما بعد للحصول علي وسام الاستحقاق الألمانى من الطبقة الأولي والذي منحني إياه رئيس الدولة الألمانية السيد / يوهانز راو عام ٢٠٠٢ ، وهو جميل طوق به عنقي ومنحني ما أعتز به ويفتخر به أبنائي من بعدي كتكريم دولي غير مختلف حول قيمته الأدبية .

تليفون : ٥٩١٠٠٥٠ / ٥٩١٨٠٤٣ (٠٢) فاكس : ٥٩١٣٧٦٢ (٠٢) ص.ب : ٢٠١٦ ـ ١١١١١ القاهرة